أروع القصص العالمية

جاين إير

أكاديميا

أروع القصص العالمية
جاين إير

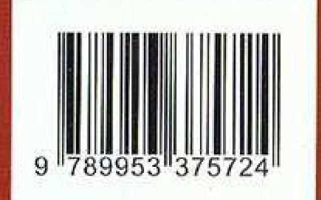
جاين إير

رحلة إلى باطن الأرض، قصة كتبها جول ڤيرن ونشرها في العام 1864. وهي تروي قصة البروفسور ليدنبروك وابن أخيه أكسل، اللذين قاما برحلة مرعبة إلى جوف الأرض عبر فتحة بركان خامد.

هذه المجموعة من روائع الأدب العالمي الكلاسيكية توفّر للقارىء متعة تجعله يعيش في عالم من الإثارة والتشويق والخيال، ومرجعاً أدبيًا يعين الطالب في فهم مميزات الرواية الكلاسيكية والحبكة الدرامية.

في هذه السلسلة

- فرانكنشتاين
- الدكتور جيكل ومستر هايد
- دراكولا
- شبح الأوبرا
- 20 ألف قدم تحت الماء
- رحلة إلى باطن الأرض
- جزيرة الكنز
- روبنسون كروزو
- الحديقة السرية
- أوليفر تويست
- نداء البراري
- بلاك بيوتي-المهر الأسود
- جاين إير
- الإلياذة
- دافيد كوبرفيلد
- الأوديسة
- قصّة مدينتين
- ساحر أوز
- العالم المفقود
- المخطوف
- الفرسان الثلاثة


9 789953 375724

أروع القصص العالمية



كتبها بتصرُّف

بولين فرانسيس

ترجمة

حسان البستاني

أكاديميا

جاين إير

ISBN: 978-9953-37-572-4

JANE EYRE

First published by Evans Brothers Limited (a member of the Evans Publishing Group)
2A Portman Mansions, Chiltern Street, London W1U 6NR, United Kingdom

Academia International أكاديميا إنترناشيونال
P.O.Box 113-6669 ص.ب.
Beirut - Lebanon 1103 2140 بيروت – لبنان
Tel (961 1) 800811-862905 -800832 هاتف
Fax (961 1) 805478 فاكس
E-mail: academia@dm.net.lb بريد إلكتروني

www.academiainternational.com

جاين إيــر

الفهرس

المقدمة

وُلدت شارلوت برونتي عام 1816 في يوركشاير شمال إنكلترا. وعندما كانت في عامِها الرابع، أصبح والدُها قسّاً لهاورث، وهي بلدةٌ صغيرةٌ في منطقة يوركشاير مُورز. تُوفِّيت والدةُ شارلوت بعد عامٍ من انتقالِهم إلى هذه البلدة، وتولّت خالتُهم العنايةَ بالأطفال الخمسة. وعندما بلغَت شارلوت الثامنةَ من العُمر، أُرسلت مع اثنتين من شقيقاتِها، ماريا وإليزابيت، إلى مدرسةٍ بعيدة. وقد ماتت أختاها في المدرسة.

بعدَ مُغادرةِ المدرسة، أصبحَت شارلوت مربيّةَ أطفالٍ ومدرِّسة، وقد أمضت بعضَ الوقتِ في بلجيكا. ولكنها كانت تحنُّ على الدَّوامِ إلى مستنقعاتِ منطقةِ يوركشاير مُورز العزيزةِ على قلبِها عندما تكون بعيدةً عنها.

كتبَت شارلوت برونتي قصّة جاين إير عام 1847 تحت اسم كارر بيل، لأن الرواياتِ التي كانت تكتبُها النساءُ لم تكنْ تُنشرُ في غالبِ الأحيان. وتُخبر هذه الروايةُ قصّةَ اليتيمةِ جاين إير التي غدَت مربِّيةَ أطفالٍ في ثورنفيلد هول. وهُناك تقعُ في غرامِ المالك، السيد روشستر - وتكتشفُ سرَّه الرهيب.

كتبَت شارلوت برونتي ثلاثَ رواياتٍ أخرى: "شيرلي" (1849)، و"فيليت" (1853)، و"الأستاذ" (نُشرت عام 1857 بعدَ وفاتِها). ولكن جاين إير هي الأكثرُ شعبية لأنها إحدى الرواياتِ الأولى التي تُخبر

قصةً من وُجهةِ نظرِ طفل صغير. فقد كانت جاين إير في العاشرةِ من عمرِها فقط عندما بدأت قصّتُها.

تزوّجَت شارلوت برونتي في الواقع، ولكنها تُوفِّيت عام 1855، أي بعدَ زواجِها بعامٍ واحد، وكانت تبلغ تسعةَ وثلاثين عاماً.



الفصل الأول

ذُعرٌ في الغرفةِ الحمراء

كانَ أبناءُ خالتي - إليزا وجُون وجُورجِينا ريد - جالسِينَ مع والدتِهم بالقربِ من المِدْفأة. لم يكنْ يُسمَحُ لي بالانضمامِ إليهم، لذا تناولتُ كتاباً وذهبتُ لقراءَتِه بجانبِ النافذة. لكن جون لَحِقَني إلى هناك. وكان جون ريد في الرابعةَ عشرةَ من عمرِه، أي أكبرَ مِنّي بأربعِ سنوات. وكان كبيرَ القامةِ بالنسبة لعُمرِه ويُشاكِسُني باستمرار. وكنتُ أرتجِفُ ذُعراً كلّما اقتربَ منّي.

"لا يحِقُّ لكِ أنْ تقرئي كُتبَنا"، قال وهو يَنْتزِعُ الكتابَ منّي. "لا مالَ لديكِ ولا أهْل. يتعيّنُ عليكِ الاستعطاءَ، لا العيشَ هنا مع أبناءِ سيِّدٍ من أمثالِنا."

ورَمَى الكتابَ عليَّ، فسقطتُ وصَدَمتُ رأسي بالباب.

"يا لكَ مِن فتىً شرِّيرٍ وقاس!" صَرَخْتُ والدَّمُ يسيلُ على وجهي.

فركضَ نَحْوِي مباشرةً وشدّ شَعري. لكنّ خالَتِي والممرِّضةَ بِيسي تمكّنتا من إبعادِنا عن بعضنا البعض بجُهدٍ كبير.

"احْبِسيها في الغُرفةِ الحمراء!" صاحَتْ خالتي.

قاوَمْتُ طوالَ الطريقِ ونحن نَصْعَدُ إلى الطابقِ العُلوي. وفي الغرفةِ الحمراء، أجلسَتْني بِيسي على كُرسيٍّ مرتفعٍ دونَ ظهرٍ، ووقفَتْ محدِّقةً بي، وقالت: "عليكِ أن تتذكّري، يا جاين إير، أنّه إذا قرّرَت خالتُكِ أن تطرُدَكِ من هذا المنزل، فإنكِ ستَنْتَهِين في منزلِ الفقراء."

لم أُجِب، فقد سَمِعْتُ هذا الكلامَ من قَبل.

وأضافت بيسي: "أقولُ لكِ هذا الأمرَ لمَصْلحتِك الخاصَّة. يجب أن تُحاولي أن تكوني مُفيدةً وسارَّة. عندَهـا، قد تُصبحينَ على الرَّحبِ والسَّعة هنا في غايتسهيد هُول."

ثمْ غادرَتْ وأقفَلتِ البابَ وراءَها. كانتِ الغرفةُ الحمراءُ غرفةً إضافيَّةً. وكانت باردةً لأنَّه نادراً ما أوقِدَت فيها النارُ من قَبل - ويسودُها السُّكونِ لأنها بعيدةٌ جداً عن غرفةِ الأطفال. ولكنَّ أسوأ ما فيها أنها كانت الغُرفةَ التي تُوُفِّيَ فيها خالي، السيد ريد، منذُ تِسْعِ سَنَوات.

ذهبتُ لأرى إن كان البابُ مُقفلاً حقاً. واحَسْرَتاه! أجل! وبينما كنتُ عائدةً إلى الكرسيِّ، مررتُ أمامَ مِرآةٍ كبيرة. فحدَّقتُ بوجهي الأبيضَ وذراعَيَّ تلمَعان في الظلام، وإلى عينَيَّ تَبْرُقانِ خوفاً. لقد كنتُ أبدَو كالشَّبَح.

وبدأ ضوءُ النهارِ يخبُو. كان الوقتُ قد تخطّى الساعةَ الرابعةَ، وما زال المطرُ يرتطِمُ بزُجاجِ النوافذِ. فغَدوتُ بارِدةً كالحَجَر، وبدأتُ أشعرُ بالخوف. حاولتُ أن أتذكَّرَ خالي الذي رَعاني عندما أصبحتُ يتيمة. فقد أخذَ عهداً من زوجتِه بتربيتي كأحدِ أولادِها بينما كان يُحتَضَرُ على فراشِ المَوت.

"لو أنَّ خالِي ما زال على قيدِ الحياةِ لعامَلَني بعَطف"، قلتُ في نَفسي.

حاولتُ جاهِدةً التحلّيَ بالشَّجاعةِ إلى أن رأيتُ ضوءاً يسطَعُ على الحائِط، ثم يتحرَّكُ عبرَ السَّقْف. وبدأ قلبي يَخْفِقُ بسرعةٍ أكبر، فأطلقتُ صرخةً طويلةً جامحةً إلى أن سمِعتُ وقعَ خُطواتٍ ومِفتاحاً يتحرَّكُ داخلَ القِفل.

"آنسة إير، هل أنتِ مريضَة؟" سألَتْ بيسي.

فصِحتُ: "لقد رأيت ضوءاً فظننتُ أنه شَبَح! دعيني أخْرُج!"

"ماذا يَجْري؟" كانت هذه خالتي، وأضافَتْ قائلةً: "لقد أصدرتُ الأوامِرَ بوجوبِ بقاءِ جاين إير في الغرفَةِ الحمراءِ إلى أن أتخذَ قراراً بخروجِها منها."

فصرَختُ: "آه يا خالة، أشفِقي عليّ! سامِحيني! لا يُمكنني أن أتحمَّلَ الأمر."

ولكن خالتي دَفَعتْني إلى الوراءِ داخلَ الغرفةِ وأقفلَت البابَ ثانيةً. عندئذ أُغْمِيَ عليَّ.

بعدَ وقتٍ طويل استيقَظْتُ في غرفتي الخاصَّةِ. لم يسبِّب لي بقائي في الغرفةِ الحمراءِ أيَّ مَرَضٍ خطير، ولكنَّه جعلني عصبيَّةَ المزاج، وما زلتُ اليومَ على هذه الحالِ بسببِ ذلك. وقد جاء الطبيبُ لعيادتي.

"ما الذي جعلكِ مريضةً بالأمس؟"، سألني بلُطف.

قلت له: "لقد حُبِستُ في غرفةٍ حتى بعد حلولِ الظلامِ وكان هناكَ شبح. و... و... أنا كئيبةٌ جداً هنا. كُنتُ أودُّ المغادرةَ ولكن لا مكانَ آخرَ ألجأُ إليه."

"هل ترغبينَ في الذَّهابِ إلى المدرسة؟" سألَ الطَّبيب.

لم أتمعَّنْ جيّداً باسمِ المدرسةِ التي طرِحَتْ عليَّ، ولكنّني أومأتُ برأسي موافِقة. ولم يَقُلْ لي أيَّ شيءٍ آخر. وفي صباحِ يومٍ من أيّام كانون الثاني/ يناير، وبعد أسابيعَ قليلة، رأيتُ عرَبةً تقتربُ على الطريقِ الخاصّةِ المؤدِّيةِ إلى المنزل. ففركَتْ بِيسي وجهي ويدَيَّ، ومشَّطَت شعري بخُشونةٍ، وطلبَت منّي بعد ذلكَ النُّزولَ إلى الطابقِ

السُفلي. وقفتُ في الرُدهةِ مرتجِفةً. يا لي من كائنٍ بائسٍ بسببِ خوفيَ الدائم!

قرعتُ البابَ ودخلتُ إلى غرفةِ الفُطور. وانحنيتُ بإفراطٍ احتراماً لرجلٍ نحيلٍ يرتدي ثياباً سوداء. رجلٌ ذو وجهٍ مَقيتٍ كقناعٍ تَنكُريٍّ تماماً. فأخذ يتفحَّصُني بنظرهِ صُعوداً ونزولاً وقال:

"إنّها صغيرة، ما هُو عمرُها؟"

أجابَتْ خالتي: "تسعُ سنوات."

"هل أنتِ فتاةٌ صالحة، يا جاين إير؟"، سألَ الرَّجُل.

ولمّا لم أُجِب قالَتْ خالتي: "ربّما كان من الأفضلِ أن لا يُقال الكثيرُ عن هذا الأمر."

"لا شيء يُحزنُ لمشهدِ أكثرَ من مشهدِ فتاةٍ سيّئةِ السلوك"، قال وهو يُمعِنُ النظرَ في وجهي.

وأضافت خالتي: "إذا قرّرْتَ أن تأخُذَ هذه الفتاةَ إلى مدرسةِ لووود، أيّها السيّد بروكلهرست، فيجبُ على المدرّسينَ أن يراقبوها بعنايةٍ شديدةٍ ويتأكدوا من أنّها لا تنطِقُ بأكاذيب. وأطلب أن تُمضيَ كلَّ أيامِ عطلتِها في المَدْرسة."

لدى مغادرةِ السيد بروكلهرست، بقيتُ هناكَ بمفردي معَ خالتي.

"يجبُ أن أتكلَّمَ معها"، قلتُ في نفسي، "إنها فرصَتي الأخيرة".

فتوجّهتُ نحوَها، وأخذتُ نفساً عميقاً، وأفرجتُ عن مكنوناتِ صَدري قائلةً: "لو أحببتُكِ لوَجَب عليَّ الاعترافَ بذلك! ولكنّني أكرهُكِ أكثرَ من أيِّ شخصٍ آخرَ في العالمِ باستثناءِ ابنِك. لن آتيَ أبداً لرؤيتِك عندما أكبُر، وسوف أُخبرُ الجميعَ عن مدى قساوتِكِ معي."

وغادرتُ غايتسهيد هول بعد أربعةِ أيام.

الفصل الثاني

مدرسةُ لووود

أذكرُ القليلَ عن تِلكَ الرِحْلةِ الطويلةِ وَسْطَ الرِّيحِ والمَطَر. كان قد حلَّ الظلامُ عندما وصَلَتِ العرَبةُ إلى مدرسةِ لووود. وهناك أُخِذتُ إلى غرفةٍ دافئةٍ حيث التقيتُ بإحدى المدرِّسات، الآنسة تامبل.

"هذه الفتاةُ صغيرةٌ جداً لتُرسَلَ إلى هنا بمفردِها"، قالت لرفيقتِها. "إنها مُرهَقَة. أعطِها شيئاً لتأكل."

كنت مُتعَبةً جداً لأحلمَ تلكَ الليلة. وفي الصباح، أيقظَني صوتُ جرسٍ مُدَوٍّ. كانتِ الفتياتُ من حَولي تَرتدينَ ملابسَهُنّ على الرُّغمِ من أنَّ الظلامَ ما زال سائداً. فأجبرتُ نفسي على النُّهوضِ من الفِراش. وعندما قُرِعَ الجرسُ ثانيةً، نزَلنا كلُّنا إلى الطابق السُّفليّ حيثُ تُوجدُ قاعةُ تِلاوةِ الصَلَوات. وأخيراً ذهبنا إلى غرفةِ الطعام. كنت مُصابةً بالدُوارِ من شدّةِ الجوعِ لدرجةِ أنني بدأتُ بتناولِ عَصيدتي، ولكنها أحرقَتْني ولم أتمكّنْ من إنهائها.

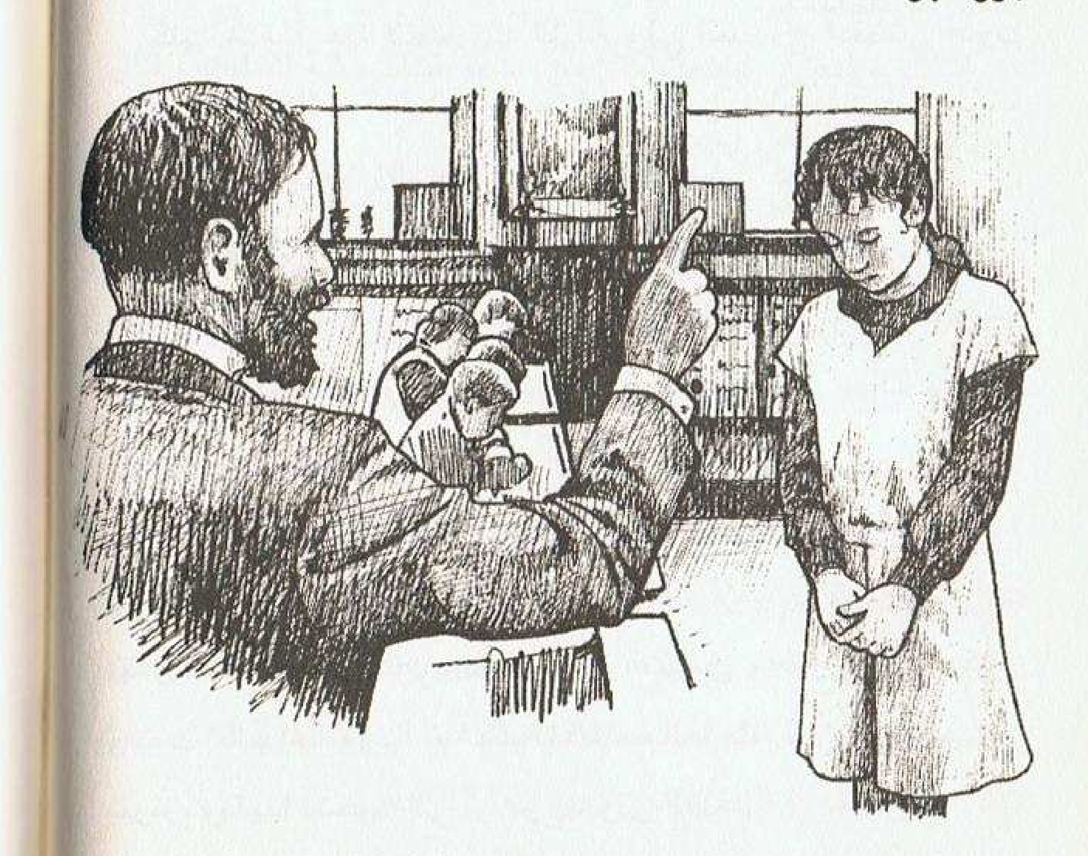
لم يتكلّمْ معي أحدٌ طِوالَ الصباحِ أثناءَ الدُروس، وبدا أنَّ أحداً لم يُلاحظني. وعندما دخلنا الحديقةَ المظلمةَ لإجراءِ التمارين، رأيتُ فتاةً جالسةً على مِقعدٍ حجَريٍّ تقرأ. فتكلّمتُ معها، ولم أدرِ كيف وجَدْتُ الشجاعةَ لأنني لم أعتَدِ التكلُّمَ مع الغُرباء. كان اسمُها هيلين بيرنز، وبقينا نتحدّث إلى أن قُرِعَ جرسُ الغداء.

كان الغداءُ طبَقاً من البطاطا مع قِطَعٍ صغيرةٍ من اللّحْم. وفي

الساعةِ الخامسة، تناولنا نِصفَ شريحةٍ من الخُبزِ وشرِبنا كوباً من القهوة. وبعد الدِّراسَة، سُمِح لنا بتناولِ كأسَ ماءٍ تلَته صلواتٌ ولجوءٌ إلى السرير. هكذا كان يوميَ الأولَ في مدرسةِ لووود.

كان كلُّ يومٍ مماثلاً للآخر - باستثناءِ زيارةٍ قام بها السيد بروكلهرست. فارتجفتُ عندما رأيتُه مجدَّدا ورُحت أتذكَّر ما قد أخبرَته خالتي. جلستُ في مؤخَّرةِ الصفِ حاملةً طبشورتي ولوحي باحتراسٍ شديدٍ لدى قيامي بحلِّ المسائلِ الحسابية. فجأةً، انزلق اللوحُ من يديَّ.

"لتأتيَ الفتاةُ مع اللوحِ المكسورِ إلى هنا!"، صاحَ السيد بروكلهرست.



شُلَّتْ حركَتي من الخوف، ولكنْ الفتياتِ الجالساتِ بجانبي دفعنَني إلى الوُقوف. وجعلني السيد بروكلهرست أقف على كرسيٍّ بدونِ ظهر.

"تبدو هذه الفتاةُ كالطفل"، بدأ كلامَه، وأضاف: "ولكنها شرّيرة في الواقع. يجب أن لا تتكلَّموا معها! هذه الفتاةُ كاذِبة!"

ثم غادَر القاعة، كان عليَّ أن أبقى واقفة هناك إلى أن يُقرَع جرسُ العشاء. شعرتُ بخَجَلٍ شديدٍ لدرجةِ أنني لم أعُد قادرةً على التنفُّس إلا بالكاد. ومرّت هيلين بمحاذاتي وابتسمَت لي بحنان. وعندما قُرِعَ الجرس، ارتميتُ على الأرضِ وبكيت.

"حاولتُ أن أكونَ فتاةً صالحة"، قلتُ وأنا أجْهَشُ بالبكاء. "وعملِتُ بكَدّ. أريد الحصولَ على صديقاتٍ والفوزَ باحترامِهنّ. لا أتحمَّلُ أن أكونَ مكروهة!"

حملَت هيلين إليَّ بعضَ الخُبزِ والقهوة، ولكنني لم أكنْ قادرةً على الابتلاعِ واستمرّيتُ بالبكاء.

فقالت لي بلُطف: "جاين، لا أحدَ يُحِبُّ السيد بروكلهرست. قد يكون بعضُ المدرّسين والتلميذاتِ غيرَ وِديّين ليومٍ أو يومَين، ولكنَّهم سينسونَ سريعاً ما قاله."

شعرتُ أنَّ أشهُري الثلاثةَ الأولى في المدرسةِ لن تَنتهي. وكنت أُكافِحُ كلَّ يومٍ لكي أتعوَّد على القوانينِ الجديدة، وكنت أخافُ من الفَشلِ على الدَّوام. ظلَّ الثلجُ العميقُ يَسدُّ الطُرقاتِ حتى آذار/ مارس، وما عدا الكنيسة، لم نكنْ نذهبُ أبعدَ من حديقةِ المدرسةِ.

وأخيراً، حلّ الربيعُ وسُمِحَ لنا بالقيامِ بنُزُهاتٍ تتخطّى حدودَ الحدائق.

كان بإمكاني رؤيةُ مدرسةِ لووود قائمةً في وادٍ بالقُرْبِ من النهر، ولكنني لم أُدركْ مدى ضررِ هذا الأمرِ على الصِّحة. فقد نَشَرَ الربيعُ مَرَضاً قاتلاً يُدعى حمّى التيفوس بينَ صفوفِ المدرسةِ المُكتظّة. وسُرعان ما باتَ أكثرُ من نصفِ الفتياتِ طريحا الفراشِ بسببِ المَرَض، وكان البردُ والافتقارُ إلى الطعامِ قد أضعفهنَّ. فأُرسِلَ العديدُ منهنَّ لكي يَمُتْنَ في منازلِهنّ، وماتَتْ أُخرياتٌ في المدرسة.

ملأ الخوفُ أروقةَ المدرسة. وبقيتُ بصِحّةٍ جيّدة، حتى أنني استمتعتُ بجمالِ الفصلِ لأنَّ الدروسَ كانت معلّقة. وكنّا نحصُلُ على مَزيدٍ من الطعامِ لأنَّ التلميذاتِ اللواتي يتوجّب إطعامُهنَّ بِتنَ أقلَّ عدداً. ولكن قلقاً واحداً كان يلازِمُ تفكيري. فقد كانت هيلين بيرنز مريضةً لا بحمّى التيفوس بل بداءٍ في الرئتَين. وفي حزيران/ يونيو تُوفِّيت صديقتي العزيزة.

بقيتُ في مدرسةِ لووود ثمانيَ سنواتٍ إضافية - ستٌّ منها كتلميذةٍ وسنتان كمدرِّسة. لم تُرسِلْ خالتي في طَلَبِي أبداً ولو لمرّةٍ واحدة، كما أنها لم تُراسِلْني. وعندما بلغتُ الثامنةَ عشرة، كنت تَعِبةً من وَتيرَة الحياة في لووود، وأردْتُ مشاهَدةَ أشخاصٍ جُدُدٍ لاختبارِ أمورٍ جديدة. فتقدّمتُ سرّاً بطلبٍ للحصولِ على وظيفة. وهكذا أصبحتُ مربّيةَ أطفالٍ في ثورنفيلد هول.

الفصل الثالث

صرخةٌ في العِلّيّة

أن تكونَ وحيداً في العالمِ عندما تكون صغيراً جداً هو اختبارٌ غريبٌ جداً. أردتُ أن أُغامِر ولكنّني كنتُ خائفةً في الوقتِ نفسِه. وبينما كانتِ العربةُ تُقِلُّني في اتجاهِ منزلي الجديدِ في ثورنفيلد هول، كان لديَّ الكثيرُ من الوقتِ للتفكير فقلت في نفسي:

"أُصلّي فقط لكي لا تكون السيّدة فيرفاكس التي استخدمَتني شبيهةً بخالتي، ولكن إذا كان ما ينتظرُني أسوأ من ذلك فيمكنني المغادرة".

كانت ثورنفيلد هول تَقعُ خارجَ قريةٍ صغيرة. وكان المنزلُ غارِقاً في الظلامِ عندما وصلتُ، باستثناءِ غرفةٍ واحدةٍ تُضيئُها شمعة، وفي داخلِها نارٌ متّقدة. كانتِ السيّدةُ فيرفاكس كَهْلةً، قصيرةَ القامة، ومُتَّشِحةً بالسواد. وكان هرٌّ يجلس عند قدمَيها وهي تُحيك الصوف. فشعرتُ بأنني أكثرَ سعادة.

"هل سأقابلُ الآنسة فيرفاكس الليلة؟"، سألتُها.

فبدَت مُربَكة وقالت: "آه، تَعنين الآنسة فارينز!"

"إذاً تلميذتي ليست ابنتك؟"، سألتُ.

"لا".

لم أطرحْ أيّةَ أسئلةٍ إضافيةٍ، إذ أني لم أرِدْ أن أبدوَ فَظّة. تحدّثنا لبعضِ الوقت، وعندما توجّهتُ إلى غُرفتي شعرتُ أخيراً بالسعادةِ والأمان. وفي الصباح، استيقظتُ باكراً وسِرتُ في الحدائق. وهناك التقيتُ السيدة فيرفاكس ثانية.

"ثورنفيلد هول مكانٌ جميل"، قالت لي، وأضافت: "أتمنّى لو أن السيد روشستر يُقيم هنا على الدَّوام."

"السيدُ روشستر؟"، سألتُ. "من هو؟"

أجابَت: "المالك. إنّه وليُّ أمر الصغيرة أديل فارينز، تلميذَتُك. لقد قدِمَتْ للتوِّ من فرنسا مع ممرِّضتِها."

وبينما كانت تتكلّم، ركضَتْ فتاةٌ عبرَ المَرْجة. كانَتْ في السابعة أو الثامنة من عمرِها تقريباً، صغيرةَ الجسمِ وشاحبةَ الوجْهِ مع شَعْرٍ جَعْدٍ يتدلّى حتى خصرِها. كانت مهذّبةً معي، فتكلّمتُ معها بالفرنسية لكي أُدخِلَ الطمأنينةَ إلى نفسِها. وبعدَ أن تناولنا طعامَ الفُطور، غنّتْ لي وألقَتْ قصيدةً كانت والدتُها قد لقّنَتْها إياها قبلَ وفاتِها. علَّمتُ أديل في الصباحِ فقط. وبعد ظهرِ ذلكَ اليوم، عرّفَتني السيدة فيرفاكس على مُحيطِ المنزل.

"زياراتُ السيد روشستر نادِرة"، قالت لي. "لا أعرفُ أبداً متى يصل، لذا عليَّ إبقاءُ الغُرفِ جاهزة."

فسألتُ: "هل تحبِّينه؟"

"لا سببَ لديَّ لكي لا أحِبَّه"، أجابَت، "لكنّني لا أعرِف دائماً متى يكون جِدّياً عندما يتكلم."

وَصَلْنا إلى بعضِ الغُرفِ الصغيرةِ في أعلى المنزل. ومن هناك، خَرَجْنا إلى السَّطْح. كانَ المَنْظَرُ رائعاً. وعندما عُدت إلى الطابق السُّفليِّ وصُرت أتجوَّل في الرُّواق، سمعتُ فجأةً ضِحكة. فتوقّفتُ. ومن ثَمَّ عادتِ الضِّحكةُ ثانيةً وبصوتٍ أعلى. فلحِقَتْ بي السيدة فيرفاكس وشرحَت قائلة: "إنّها إحدى الخادمات، وعلى الأرجح غرايس بول. أسمَعُها في غالبِ الأحيان. إنّها تَخيطُ في إحدى هذه الغُرف."

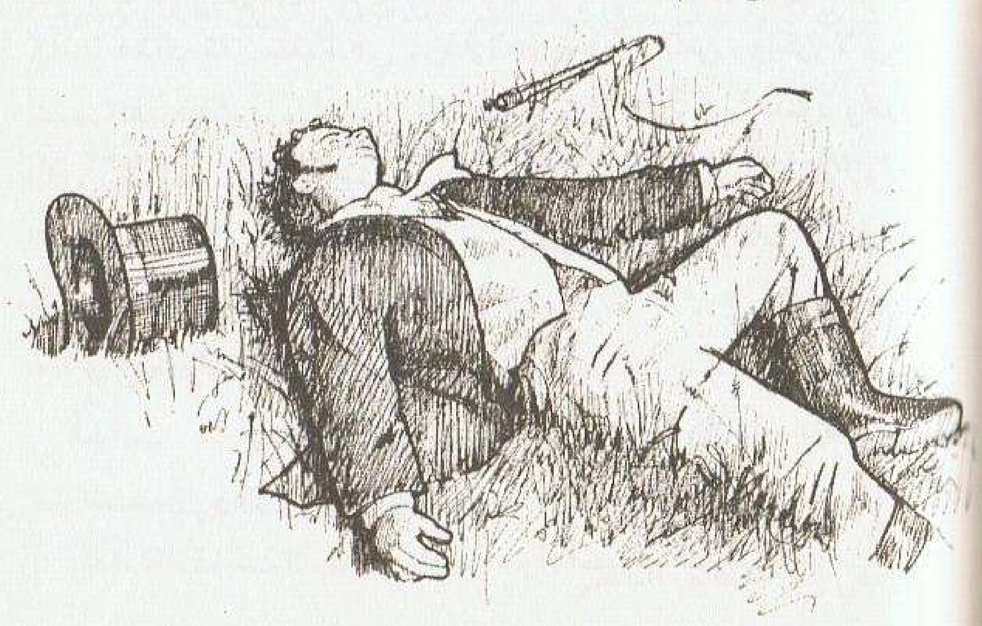
وبينما كانَتْ تتكلّم، تردّد صدى الضِّحكةِ مجدّداً. كانت حزينةً

وأصابتني بالقُشَعْريرة. ثم فُتِحَ البابُ الأقربُ إليَّ وخرجَتِ منه امرأةٌ. كان شعرُها أحمرَ ووجهُها غيرَ ودِّي.

"كثيرٌ من الضجيج، غرايس بول"، صرخَت السيدة فيرفاكس.

غالباً ما كُنتُ أصعَدُ إلى السطحِ لكي أستمتعَ بالمنظر. وغالباً ما كُنت أسمع ضِحكةَ غرايس بول. وفي بعضِ الأحيان، كانت تتكلَّمُ بصوتٍ منخفِضٍ، عِلماً أنني لم أكنْ قادرةً على فهمِ ما تقول.

وفي فترةِ بعدَ الظهرِ من أحدِ أيامِ كانون الثاني/ يناير، كانت أديل مريضةً فوافقتُ على تركِها تُمضي اليومَ في السرير. وكان يوماً جميلاً ولكن شديدَ البرودة. فعرَضْتُ على السيدة فيرفاكس أن أوصِلَ رِسالتها إلى مركزِ البريدِ لأنني كنت راغبةً في السَّير. وعلى بُعدِ ميلٍ واحدٍ من ثورنفيلد هول تقريباً، وفي منتصفِ الطريقِ المؤدّي إلى القرية، جلستُ في مَجازٍ ضيّقٍ طلَباً للراحة. وبقيتُ هناك إلى أن غابَتِ الشمسُ القُرمزيّةُ عن البَصرِ وراءَ الأشجار، وبدأ القمر بالطّلوع. ولم يُعكّر الصّمت السائدِ إلا صوتُ حِصان. وفجأةً،



انزلَقَ على صفحةٍ من الجليدِ رامياً مُمتطيَه على الأرضِ. فهُرِعْتُ إليه وسألته:

"هل تأذيتَ يا سيدي؟ يُمكِنُني الإتيانَ بمساعدةٍ من ثورنفيلد هول."

فأجابَ: "لا، شكراً لكِ، لا عظامَ مكسورة، فقط كاحلٌ ملويٌّ بشدّة."

كان بإمكاني رؤيتُه بوضوحٍ تحتَ ضوءِ القمر. كان رجلاً في الخامسةِ والثلاثين من العمرِ تقريباً، مُتجهِّمَ الوجهِ وقد اكتسبَت بَشَرتُه سُمرةً لكثرةِ التعرّضِ لأشعةِ الشمس، وحاجباه كثيفان. فعرَضْتُ عليهِ ثانيةً الذهابَ لطلبِ المساعدة.

"هل تعرفينَ السيد روشستر؟"، سأل.

أجبتُ: "لا، لم يَسبِقْ لي أن رأيتُه أبداً."

"هل أنتِ...؟" وتوقَّفَ ونظرَ إلى ثيابي السوداءِ البسيطة.

"أنا مربِّيَةُ الأطفال هناك"، قلتُ له.

فانطلقَ مجدَّداً مُتقدِّماً حصانَه، وكلبُه إلى جانبِه - وذهبتُ لإيصالِ رسالتي إلى مركزِ البريد. وعندما عدتُ إلى ثورنفيلد هول، كانَتْ هناك نارٌ متّقدة في غرفةِ السيدة فيرفاكس - ولكن لا وجودَ للسيدة فيرفاكس. بدلاً من ذلك، كان هناك كلبٌ كبيرٌ أسودَ وأبيضَ اللون، تماماً كالذي رأيتُه في المَجازِ الضيّق، جالساً بمفردِه على البساطِ يُحدِّق بالنار. فنهضَ وقَدِمَ نحوي وهو يهزّ ذيلَه. ثم دخلَتْ إحدى الخادمات إلى الغرفة.

"لِمَن هذا الكلب؟"، سألتُها.

أجابت: "بايلوت؟ لقد وصلَ للتوّ مع السيد روشستر. سَقَطَ سيِّدُه عن الحصانِ وهو في طريقِه إلى هنا."

"إذاً، لقد قابلتُ السيدَ ثورنفيلد هول أخيراً!" قلتُ في نفسي.

الفصل الرابع

حريق! حريق!

لم ألتقِ السيّد روشستر مجدَّداً حتى بعدَ ظُهرِ اليومِ التالي عندما دعاني مع أديل لتناولِ الشاي. كنتُ عَصبيّةَ المِزاج لأنّني لم أعتدِ الغرباء. وكان السيّدُ روشستر جالساً بجانبِ النارِ مُلقياً قدمَه على وِسادة. كان يحدِّقُ بكلبِه وبأديل.

"لتتفضّلِ الآنسة إير بالجُلوس"، قال دُونَ أن يرفعَ ناظرَيه عندما كانَتِ السيدة فيرفاكس تقودُني إلى الداخل.

ثم بدأ السيّد روشستر يشربُ الشايَ بصمت. ومن ثَمّ، بدأ فجأةً بطرحِ الأسئلةِ عليَّ.

"ثماني سنوات!"، قال عندما أخبرتُه عن مدرسةِ لووود. "لا عَجَبَ إن بدَوتِ كمَنْ يأتي من عالمٍ آخر. لقد أرَتني أديل بعضَ رُسومِكِ. أريني المزيدَ يا آنسة إير."

فأتيتُ بها، وراح يَدرسُها بعناية. لم تكُنْ رسوماً استثنائيّةً أيها القارئ - غيومٌ وبحرٌ وتلالٌ وجبالُ جليدٍ بألوانٍ مائيّة.

"لا تملُكينَ قدراً كافياً من مَهارةِ الفنّان"، قال أخيراً. "ولكن، وإن يكُن، فهي رسومٌ فريدةٌ بالنسبةِ إلى تلميذة. والآن، ضعيها جانباً وخذي أديل إلى الفراش."

"إنّه رجلٌ غريبٌ وقاسٍ"، قلتُ للسيدة فيرفاكس عندما عدتُ أدراجي إلى الطابقِ السُفلي.

فأجابَت: "أنا معتادةٌ على أساليبه. هذه طبيعتُه إلى حدٍّ ما، ولكنه يملِكُ أيضاً أفكاراً مُحزِنة."

لم تُقنِعْني إجابتُها، ولكنني فهمتُ أنها لا تريدُني أن أطرحَ المزيدَ مِنَ الأسئلة. وخلالَ الأيامِ القليلةِ التاليةِ لم أرَ السيد روشستر إلا قليلاً إلى أن كان لدَيه زائرون على العشاء. وعندما غادروا، أرسلَ في طلَبي مجدَّداً. وكان يبتسمُ وعيناه تتلألآن.

"هل تظُنِّينَ أنني شخصٌ وسيم، أيتها الآنسة جاين؟" سأل.

فقلت له: "لا سيدي."

"وأنتِ لستِ جميلة"، قال لي. "أحتاجُ إلى رِفْقَةٍ هذه الليلة. أريد أن أعرِفَ المزيدَ عنكِ. لذا تكلّمي!"

"في أيِّ موضوعٍ يا سيِّدي؟"

"اختاري ما تشائين."

لم أقلْ شيئاً.

"أأنتِ بكماء، آنسة إير، أم عنيدة."

فقلت أخيراً: "لا أدري ما الذي يثيرُ اهتمامك يا سيدي."

ولكننا واصَلْنا الحديثَ عن أمورٍ عدة، ولم نتكلّمْ إلا غالباً بعدَ ذلك. فشعرتُ بأنني أقلُّ خجلاً معه - كما لو أنّه كان نسيباً لي أكثرَ منه سيداً. وأصبحتُ أكثرَ سعادةٍ، وصِحّة، وباتَ جسمي أكثرَ امتلاءً. هل ما زلتُ أظن أنه قبيح؟ لا أيها القارئ. ومع ذلك، لم أنسَ أخطاءَه. فما زال قاسيَ الطباع، مُحدودِبَ الظهر، ومتقلّبَ المِزاج - ولكنني على ثقةٍ بأنه لا يستطيع أن يفعلَ شيئاً حِيالَ ذلك.

في إحدى الليالي، وفي الساعةِ الثانية صباحاً، استيقَظْتُ فجأة. فقد سمعتُ صوتاً خارجَ الغرفة فصرَخْت:

"مَن هناك؟"

ما مِن جواب، وشعرتُ بالبردِ من شدّةِ الخوف.

"قد يكون بايلوت"، قلتُ في نفسي.

وحاولْتُ أن أغْفُو ثانية، لكنني سمِعتُ ضِحكة - خفيضَةً وماكِرة - خارجَ باب غرفتي مباشرةً. ومن ثَمّ، سمعتُ قرقرةً وأنيناً. هل كانت غرايس بول؟ لم يعُدْ بإمكاني البقاءَ بمفردي. فالتقطتُ شَمْعَتي، وفتحتُ البابَ لمناداةِ السيدة فيرفاكس. وما كان أشدَّ دهشتي عندما رأيتُ الرُّواقَ عابقاً بالدّخانِ المُتدفّقِ من أسفلِ بابِ السيّد روشستر. فركضتُ إلى غُرفتِه ووجدتُ النيرانَ تلتَهِم السّتائرَ المحيطةَ بسريرِه فصرَخْت وأنا أهزّه:



"استيقِظ! استيقظ!" ولكنَّ الدُّخانَ جعله ينام. فألقيتُ إبريقَ ماءٍ فوقَ سريرِه لإطفاءِ ألسنةِ اللهَب.

"هل تحاولينَ إغراقي، يا جاين إير؟"، سألني، أخيراً وهو يفتحَ عينَيه.

فأخبرتُه بما حدَث وكان يصغي بصمتٍ شديد.

"إبقَي هنا"، قال لي، وأضاف: "لا تنادي أحداً. يجبُ أن أصعَدَ إلى العُلِّيَّة".

ففعلتُ ما طلب مني.

وعندما عادَ قال لي: "كما ظَنَنْتِ، كانت غرايس بول. لقد أنقذتِ حياتي، آنسة إير، وأنا مَدينٌ لك. لا يُمكنني قولُ المزيد."

عُدتُ إلى غرفتي، ولكنني لم أحاولِ النوم. واستيقَظتُ بعدَ بُزوغِ الفَجْرِ.

انتظرتُ طيلةَ اليومِ لرؤيةِ السيّد رُوشستر، ولكنه لم يُرسِلْ في طلبي أو في طلبِ أديل. وعندما حلّ الظلام، ظننتُ أنّني سمعتُ وَقْعَ خُطاه، والتفتُّ نحوَ البابِ متوقّعةً رؤيتَه. ولكن البابَ ظلّ مُقفلاً. كان لديَّ الكثيرُ من الأمورِ المتعلّقةِ بالليلةِ الماضيةِ لأسألَه عنها! وأخيراً، أحضرَت لي السيّدةُ فيرفاكس الشاي.

"لقد حَظِيَ السيد روشستر بطقسٍ جميلٍ لرحلتِه"، قالت لي وهي تنظر عبرَ النافذة.

فأجبْتُ: "لم أكنْ أعلمُ أنه خارجَ المنزل."

"لقد انطلقَ بعدَ الفُطور"، أجابَتِ السيِّدة فيرفاكس. "لقد دُعِي لزيارة بعض الأصدقاء. سوف تُقام حفلةٌ كبيرة. وأظن أنه سيبقى هُناك أسبوعاً أو أكثر."

فسألتُ: "هل ستكون هناكَ سيّدات؟"

"أجل، بناتُ اللورد إنغرام"، قالت لي. "لقد التقيتُ بلانش إنغرام منذُ سنواتٍ قليلةٍ عندما كانت في الثامنة عشرة من عمرِها."

"كيف تبدو؟"

"طويلةٌ وجميلة، مع عُنُقٍ طويلةٍ ورشيقة، وعينَين كبيرتَين سوداوَين"، أجابَتِ السيدة فيرفاكس. "وهي تملِكُ عَقَفاتِ شَعرٍ برّاقةٍ لم يسبقْ لي أن رأيتُ مثلَها. ولها صوتٌ جميل. وهي تُنشد مع السيّد روشستر أغنيةً ثُنائيةً معاً."

"أنتِ مربّيةُ أطفالٍ عاديّةٍ وفقيرة، جاين إير"، قلتُ في نفسي عندما أصبحتُ بمفردي. "لعلّك وَقَعتِ في حبِّ السيد روشستر، ولكن لا تظنّي أبداً أنه قد يكون مهتمّاً بكِ."

فقرّرتُ إعدادَ رسمَين - واحدٌ لي، أنا الفقيرةُ والعاديّة، والآخرُ للآنسة إنغرام الجميلة.

"ومتى ظننتُ أنَّ السيدَ قد يحبُّني، سأعمَدُ إلى مقارنةِ الرَسمَيْنِ ليذكِّراني بذاتي،" قلت في نفسي.

مرّتْ عشرةُ أيامٍ والسيد روشستر لم يعُدْ بعد. أُصِبْتُ بخيبةِ أملٍ ولكنّني كنت أحدِّثُ نفسي بحَزمٍ قائلةً: "أنتِ مجرَّدُ مربِّيةِ أطفال، يا جاين إير. لا أملَ لكِ مع سيِّدِ ثورنفيلد هول!"

الفصل الخامس

زائرٌ غيرُ مرحَّبٍ به

في يومٍ معتدلٍ من أيامِ نيسان/ إبريل، عادَ السيد روشستر إلى منزلِهِ مُصطحباً معه زائريه بمن فيهم الآنسة إنغرام. وفي ذلك المساء نزلتُ إلى الطابقِ السُّفليِّ مع أديل التي جرى تعريفها بالسيدات. اكتشفتُ أنَّ الآنسة إنغرام جميلةٌ بجمالِ اللوحة التي رسمتها لها، ولكنها غيرَ ودِّيَةٍ ومُتَعَجرِفة. أخيراً، وقبلَ أن يعودَ السادةُ إلى الغرفة، انسلّيتُ خِلسةً عبرَ البابِ الجانبي. وهناك أصبحتُ وجهاً لوجه أمامَ السيد روشستر.

"عودي إلى غرفةِ الرسم، آنسة إير"، قال بلُطْف.

فأجبتُ: "أنا مُتعَبةٌ سيدي."

"وحزينةٌ قليلاً؟"، قال سائلاً. "يمكِنُني أن أرى الدموعَ تلمَعُ في عينَيك. ولكن ما دام زوّاري هنا، فلا بد لي أن أطلُبَ منكِ أن تأتي إلى هنا كلَّ مساء."

كانتِ الأيامُ التي تلَتْ سارّةً في ثورنفيلد هول. وبدا أن كلَّ المشاعرِ الحزينةِ قد غادرتِ المنزل. كنتُ مفعَمَةً بالنشاط. ولكن السيد روشستر لم يُلاحظْني. أما وقد تعلّمتُ أن أُحبَّه، فلم يكنْ بإمكاني ألا أحبَّه! وأدركتُ أنه قد يتزوَّج من الآنسة إنغرام - على الرُّغمِ من أنها لا تَفتِنه.

في مساءِ أحدِ الأيام، وعندما كان السيد روشستر في القريةِ في رحلة عمل، وصلَ إلى البيت رجلٌ غريب. وكان طويلَ القامة، حسنَ المَظهر، ومهذّباً جداً.

"أُدعى السيد مايسن"، قال للسيدة فيرفاكس. "إنّي مضطرٌ لانتظار سيِّدِك لأنني اجتزتُ كلَّ تلكَ المسافةِ من وست إنديز لرؤيتِه."

كنتُ واقفةً في الرُّدهة عندما عاد السيد روشستر. فقلت له: "هناك سيّدٌ يُدعى مايسن في انتظارك، يا سيدي، من جامايكا."

فتجمّدتِ البَسمةُ على شفتَيه، وأمسَكَ ذِراعِي بإحكام. ثم جلس وهو يرتجفُ وأخذ بِيَدي وقال:

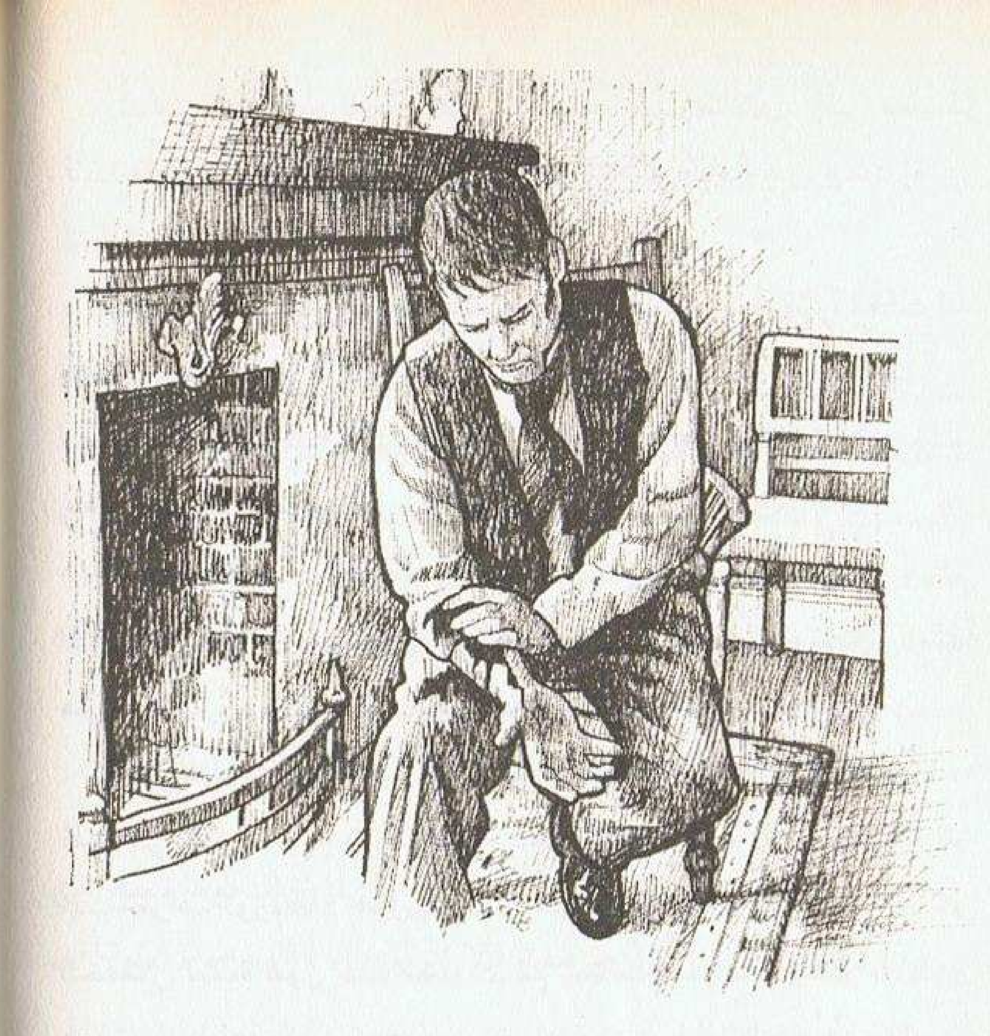
"يا صديقتي الصغيرة"، وأضاف: "أتمنّى أن أكونَ معكِ فقط على جزيرةٍ هادئةٍ. أتمنّى أن يزولَ كلُّ اضطرابٍ وخطَر." وتناوَلَ رشفةَ ماء، وقال: "أدخِلي مايسن إلى هنا، ثم اتركينا لوحدنا."

تلكَ الليلة، نسيتُ أن أُغلِق ستائرَ غُرفتي. أيقظني القمرُ عندما ظهر في كبِدِ السماءِ بدراً وضّاء. فجأةً، انطلقَتْ صرخةٌ جامِحةٌ من أحدِ أطرافِ ثورنفيلد هول إلى الطرفِ الآخر. وكاد قلبي يتوقّف عن الخفقانِ لشِدّةِ هولِ هذا الصوت. ثمّ سمِعْتُ ضجيجاً وصُراخاً فوقَ غرفتي. "ساعدوني! ساعدوني! ساعدوني!" قال الصوت صارخاً. "ألن يأتيَ أحدٌ لمساعدتي؟ روشستر، إكراماً لله! ساعدني!"

ارتديتُ ملابسي بسرعةٍ وركضتُ في الرّواق. وكان زوّارُنا مُستيقظِين أيضاً. ثم فُتِحَ البابُ القائمُ في نهايةِ الرواق، واتجه السيد روشستر نحوَنا حامِلاً شمعة. وكانت الآنسة إنغرام تُمسِكُ ذراعَه فسألته:

"ما هو الأمرُ الرهيبُ الذي حدث؟"

قال: "أحدُ الخدَمِ انتابَهُ كابوسٌ. هذا كلُّ ما في الأمر. أطلُبُ منكُمْ جميعاً العودةَ إلى النَّوم."



وبعد دقائقَ قليلة، قرَعَ السيد روشستر بابي وهَمَسَ: "أحتاجُ إلى مساعدتِك. تعالَي معي بهدوءٍ واجْلِبي فُوطَة. ألا تَكْرهينَ مَنْظرَ الدِّماء؟"

فأجبْتُ: "لا أعلم. لا أظنُّ ذلك."

وقادني إلى غرفةٍ كنت قد زُرتُها أوَلَ مرَّةٍ معَ السيدة فيرفاكس. وكان النسيجُ الجداريّ المُزدانُ بالرسومِ قد انتُزِع من مكانِه ليكشِفَ وراءَهُ عن باب. وكان البابُ مفتوحاً. وسَمِعتُ زَمجرةً تشبِهُ صوتَ الكلب. دخل السيِّد روشستر وسمعتُ ضَحِكاً.

"غرايس بول في الداخل!"، قلت في نفسي.

فدعاني للدُخول. كان السيد مايسن جالساً على كرسي، وعيناه مُطبَقتان، ووجهُه شاحب - وذراعُه مضرَّجةٌ بالدِّماء.

"يجبُ أن تَبْقي معه حتى أعودَ بصُحبةِ الطبيب"، قال السيد روشستر. "نظِّفي الجُرحَ وأعطِهِ ماءً ليَشْرَب."

بقيتُ جالسةً هناكَ إلى أنِ انطفأتِ الشَّمعة. وقبلَ الفجرِ تماماً، سمعتُ بايلوت ينبح، ودخلَ السيد روشستر الغرفةَ مع الطبيب.

"لقد عضَّتني!" قال السيد مايسن مُتأوِّهاً وهو يفتَحُ عينَيه. "ولكنّ روشستر انتزعَ السكّينَ من يدِها"، أضافَ مُرتجِفاً. ثم همسَ قائلاً: "كان الأمرُ رهيباً. كانت كالنَّمِرة. لقد مصَّت دمي."

فارتعدتُ لدى سماعِ كلماتِه.

"لم يكنْ يجدرُ بكَ مُحاولةَ رؤيتِها بمفردِك"، قال السيد روشستر. "لقد حذّرتُك."

"عليكَ أن تعودَ إلى جامايكا وتنساها"، أضافَ السيد روشستر وقد بدَتْ على وجهِه أماراتُ الرُعبِ والاشمئزاز.

عندما بدأ الفجرُ بالبُزوغ، ساعدْنا السيِّدَ مايسن على دخولِ عربة. وبينما كان يبتعِد، اتَّجهَ السيدُ روشستر نحوَ الحديقة. كانتِ الشمسُ تسطعُ على قَطَرات الندى، فقطفَ وردة.

"جاين، لقد مَررتِ بلَيلةٍ غريبة"، قال، وأضاف: "هل تقبلين هذه الزهرة؟"

أجبْتُ: "شكراً يا سيدي. هل ستستمرُّ بالسَّماحِ لغرايس بول بالعيشِ هنا؟"

"آه، أجل"، قال. "ولكن يجب عليكِ أن تَنْسَي أمرَها، جاين."

الفصل السادس

سامِحي وانْسَي

في اليومِ التالي، أرسَلَتِ السيِّدةُ فيرفاكس في طلَبي. وكان بصُحْبَتِها رجلٌ متَّشِحٌ بالسَوادِ ينتظر لكي يتحدّثَ إليَّ.

"لن تتذكَّريني يا آنسة إير"، قال، وأضاف: "أنا الحوذيُّ الذي يعملُ لدى خالتِكِ في غايتسهيد هول."

فصرختُ: "أتذكّركَ بالفعلِ يا روبرت. لقد تزوّجتَ بيسي. كيف حالُها؟"

أجاب: "حسناً آنستي، لدينا الآن ثلاثةُ أولادٍ. ولكن لا يمكِنُني تزويدُك بأخبارٍ جيّدةٍ عن عائلتِكِ. لقد مات السيّد جون الأسبوعَ الماضي. وكان يعيشُ حياةً شرِّيرة. والسيّدة ريد مريضةٌ جداً بسببِ الصّدمةِ التي تلقّتها، وهي تستمرّ بذكرِ اسمِك، يا آنستي. إنها تُريدُ أن ترجعي معي."

"يجدُرُ بيَ الذهاب"، قلت له. "سأتكلّم مع السيد روشستر."

وجدتُ السيّد روشستر مع الآنسة إنغرام والآخرين. لم يكنْ مسروراً بالسمَاح لي بالرحيل وجعلني أقطعُ له وعداً بالعودةِ في أقربِ وقتٍ ممكن.

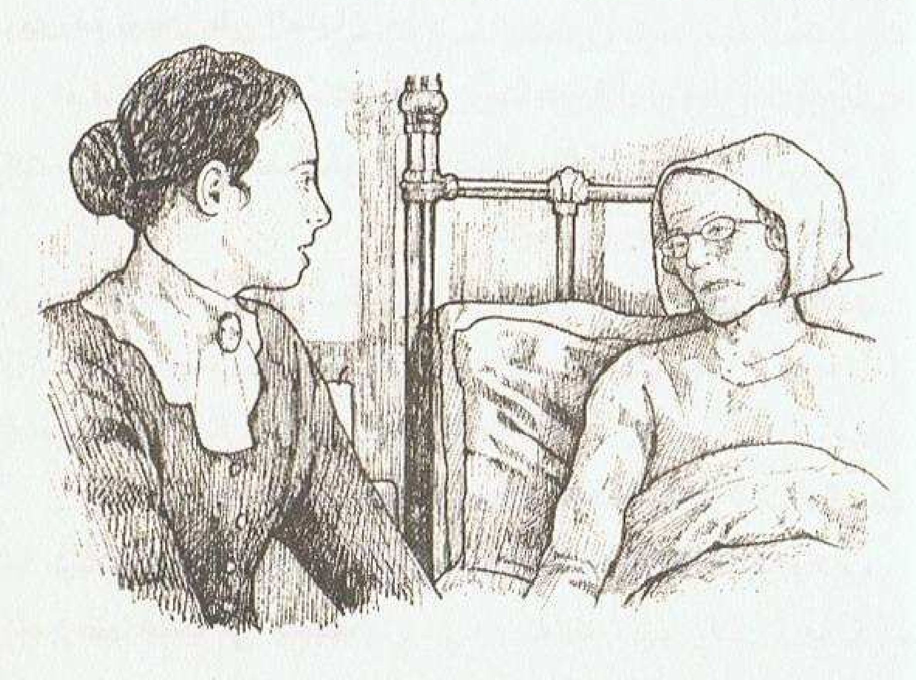
فقلت له: "ولكنّكَ إذا تزوجتَ بالآنسة إنغرام صارَتْ أديل مضطرَّةً للذهابِ إلى المدرسة. ولن تكونَ إذا بحاجةٍ إليَّ."

"عِديني يا جاين بأنكِ لن تَبحثي عن عملٍ جديد"، قال، وأضاف: "لم يحِنِ الوقتُ بعد."

فأجبت: "أعِدك يا سيدي."

وصلتُ إلى غايتسهيد هول في الخامسةِ مساءً من أولِ أيار/ مايو. فزُرتُ بيسي، ثمّ سلكتُ الطريقَ الخاصّةَ صعوداً في اتجاهِ المنزلِ الكبير. لقد مرّتْ تسعُ سنواتٍ تقريباً على نزولي هذه الطريقَ في ذلكَ الصباحِ المظلمِ من شهر كانون الثاني/ يناير. شعرت بأنني أكثرَ قوّةً الآن وأقلَّ خوفاً.

دخلتُ إلى المنزلِ وتكلّمتُ بتهذيبٍ مع أبناءِ خالتي لبعضِ الوقت. ثمّ أدخلوني إلى غرفةِ خالتي. لقد تركتُها وفي نفسي مرارةٌ وبُغْض. ولكنّني شعرتُ بالأسفِ في ظلِ تلكَ الظروفِ بسببِ تألّمِها الكبير. أردْتُ نسيانَ الماضي والمسامَحَة. فتوجّهتُ إلى سريرِها. كان وجهُها ما يزال مُتجَهِّماً، وانحنيتُ فوقَها لتَقبيلها.



"هل أنتِ جاين إير؟"، سألَت.

أجبت: "أجل، يا خالتي ريد. كيف حالكِ يا خالتي العزيزة؟"

وأمسكتُ بيدها، ولكنها سحبَتها مني ونظرَت إليّ بفتور وقالت: "كانت لديَّ متاعِبُ مع جاين إير أكثرَ مما قد يظن أيُّ إنسان"، وأضافت: "كنتُ مسرورةً عندما غادرَت، أتمنى لو أنها ماتَتْ في لووود."

فأجبْتُ بغضبٍ: "إنَّها أُمنيةٌ غريبةٌ يا سيِّدة ريد. لماذا تكرهينَها إلى هذا الحدّ؟"

"كنتُ أكرَهُ والدتَها على الدَّوام"، قالت خالتي. "كانت الشقيقةَ الوحيدةُ لزوجي ومحبوبتَه المفضَّلة. عندما ماتَتْ، بكى عليها كالأبلهِ وأرسلَ في طلبِ الطفلة. كنت أكرهُها - إنها شيءٌ ينتحِب بطريقةٍ تبعَثُ على الغثَيان".

ثم استغرقَتْ في نومٍ عميق، ومضَتْ عَشَرةُ أيامٍ قبلَ أن نتمكَّنَ من التحدّثِ ثانيةً. ثمّ جعلَتني أقرأ هذه الرِّسالة:

ماديرا

جزرُ الكاناري

سيدَتي،

هلاّ أرسلتِ لي من فضلِك عنوانَ ابنةِ أخي، جاين إير؟

أرغَبُ في الكتابةِ لها لأطلبَ منها القدومَ والعيشَ معي.

أرغَبُ أيضاً في تَبنّيها.

مع محبتي وإخلاصي، جون إير

"شقيقُ والدي!"، قلت. ثمّ نظرْتُ إلى تاريخ الرسالة. "لقد كُتِبَت هذه الرسالةُ قبلَ ثلاثةِ أعوام! لِماذا لَمْ أتلقَّها؟"

فأجابَتْ خالتي: "كنتُ أكرهُك. كتبتُ له رسالةً أخبرتُه فيها بأنك مُتِّ بحمّى التيفوس في مدرسةِ لووود".

"حاولتُ أن أحبَّكِ يا خالتي"، صرخت، وانحَنيتُ فوقَها، وقلت: "هلاّ قبلْتِني الآن؟" فرفضَتْ. قلت: "سواءَ أحبَبْتِني أم لا، فإنني أسامِحك."

بعد أسابيعَ قليلةٍ من وفاتِها، انطلقتُ إلى ثورنفيلد هول ثانيةً. ولم أُخبِرْ أحداً عن الموعدِ الدقيقِ لعَودتي لأنني لم أكُن أرغبُ في أن تُلاقيني العربةُ في القرية. فقد أردتُ أن أسيرَ إلى المنزلِ بمُفردي.

كان يوماً غائِماً من أيامِ حُزيران/ يونيو عندما وصلتُ. وبينما كنتُ أسيرُ بينَ أسْيجَةِ الشُجَيْراتِ المليئةِ بالورود، رأيتُ المَجازَ الضيّقَ الذي التقيتُ فيه السيّدَ روشستر للمرةِ الأولى - وكان هناك! فارتعشتُ عندما رأيتُهُ واستدرتُ لسلوكِ طريقٍ آخر، ولكنه كان قد رآني.

"مرحباً!"، صرخَ، وأضاف: "ها قد عُدتِ!"

فقلت له: "أنا مسرورةٌ بعودتي."

سِرنا معاً إلى المنزل. واهتاجَتْ أديل الصغيرةُ فرَحاً لدى رؤيتي. وتلا عودتي أسبوعانِ هادئان. ولم يَقُلِ السيّد روشستر شيئاً عن زواجِه، كما أنني لم أشاهِدْ أيَّةَ استعداداتٍ لهذا الزواج. ولم يَقُمْ بزيارةِ الآنسة إنغرام، كما أنها لم تقُمْ بزيارتِه.

وخلالَ ذلك الوقت، أرسلَ في طلبي عدّةَ مراتٍ للتحدّثِ إليّ. لم يسبِقْ له أن كان بهذا اللُّطفِ معي - ولم يسبِقْ لي أن أحببتُه بهذا القَدْر.

الفصل السابع

الوجهُ في ضوءِ الشمعة

في إحدى أمسياتِ ليالي الصيف، خرجْتُ إلى الحديقةِ للجلوسِ في بُستانِ الفاكهةِ تحتَ ضوءِ القمرِ الطّالع. كانَتِ السماءُ زرقاءَ والهواءُ حارّاً، وكان بإمكاني شمُّ رائحةِ الياسَمينِ العَطِرة . وعندما سمعتُ وَقْعَ خُطَى سيِّدي على الدَّرب، أمِلتُ في ألاّ يراني. ولكنَّهُ ناداني وطلبَ منّي الجلوسَ معه، وقال:

"مِن المُخزي البقاءَ في المنزلِ في ليلةٍ جميلةٍ مماثِلة".

وبدأتُ بالتكلّمِ عن زواجِه القادم، ولم أتمكّنْ من حبسِ دموعي.

"أتمنّى لو أنّني لم أُولَدْ أبداً!"، صرختُ. "أتمنّى لو أنني لم آتِ إلى هنا أبداً! أُحبُّ ثورنفيلد هول. لقد عِشتُ حياةً سعيدةً هنا، وأمتلِئُ رُعباً لفِكرةِ مغادرتِك."

فسأل متفاجئاً: "لمَ عليكِ المغادَرة؟"

أغضبَتني كلماتُه، فصرختُ: "هل تظنُّ أنّ لا مشاعِرَ لديّ؟ لو كنتُ ثريّةً وجميلةً لرغِبتَ فيَّ لا في الآنسة إنغرام."

فوضَعَ السيدُ روشستر ذراعَيهِ حولي وقبّلني، وقال: "أقدّمُ لكِ قلبي، يا جاين."

فأجبْتُ: "لا تسخَرْ منّي، يا سيِّدي، أتوسّلُ إليك."

" هل تتزوّجين بي، يا جاين؟".

فتجمّدتُ في الحالِ مُنذهلة.

"الآنسةُ إنغرام لا تحِبُّني!"، صاحَ قائلاً، وأضاف: "وأنا لا أحبُّها."

أمعَنتُ في التفكيرِ مدةً طويلة، وقلتُ أخيراً: "نعم، سأتزوّجُ بكَ."

وبينما كنتُ أتكلّم، بدأ المطرُ بالهطولِ وأسرعْنا عائدَينِ إلى المنزل. ولكنني نِمتُ نوماً عميقاً بالرغم من هبوبِ عاصفةٍ شديدة.

وفي الصباح، تساءلتُ عما إذا كان ما حدَثَ البارحة هو مجرّدُ حُلم. ولكنَّ السيد روشستر لم يكنْ يتكلّم سوى عن زواجِنا. وكانت السيدة فيرفاكس غير مكترثةٍ بالموضوع.

"أنتِ صغيرةٌ جداً ولا خِبرةَ لكِ في الحياة"، قالت لي. "أخاف أن تُصابي بخيبةِ أمل. فالسادةُ لا يتزوّجونَ عادةً بمربِّياتِ الأطفال."

ولكنّني كنتُ سعيدة، وكان زوجي المستقبلي يتحوَّل لأن يُصبح كلَّ عالمي. وتمّتِ الاستعداداتُ ليومِ زفافِنا، وحُزِمَتِ الأمتعةُ لقضاءِ شهرِ العسلِ في أوروبا. وفي مساءِ اليومِ السابقِ لزِفافِنا، عاد السيّد روشستر من زيارةٍ إلى إحدى مزارعِه. لم يكنْ بإمكاني تناولُ أيِّ شيء فسألني:

"ما الخَطْبُ يا جاين؟ أخبريني! هل أنتِ عصبيّةُ المِزاج؟"

فقلتُ له: "حدثَ أمرٌ غريبٌ الليلةَ الماضية. فقد أيقَظَني صوتُ وَلْوَلَةٍ اخْتَلَطَ بهديرِ الريح. وعندما استسلمتُ للنوم، حلِمتُ بأن ثورنفيلد هول استحالت خراباً وأنكَ كنتَ تبتعِدُ عنّي على صهوةِ حصانِك. ثمّ استيقظتُ ثانيةً. كان أحدُهم يحمِل شمعةً فوقي. لم أتعرّفْ إلى الوجهِ الذي كان ينظرُ إليّ."

"كيف كانت تبدو، يا جاين؟".

أجبت: "كانَتْ طويلةَ القامةِ ذات شعرِ طويلٍ قاتم. أخذَت طَرْحَةَ

الزِّفافِ الخاصَّةِ بي ووضَعَتْها على رأسِها واستدارت نحوَ المرآة"، قلتُ مرتعِدة، وأضَفت: "لم يسبِقْ لي أن رأيتُ هذا الوجه! كان وحشيّاً مع عينَين مُحتقنتَينِ بالدم. لقد مزَّقتْ خِماري إرَباً. وعندما استدارَتْ لترحل، حَمَلتِ الشمعةَ وقرّبَتها من وجهي... و... أُغميَ عليّ. أخبِرني سيّدي! من هي؟"

"لا أحد، إنّها من صُنعِ الخيال"، قال لي.

فاعترضتُ قائلة: "كانت حقيقيّة!"

أخذني السيد روشستر بين ذراعَيه وأخذ يواسيني. فقلت له.

"ولكنّ خماري قد تمزّق إرَباً."

شعرتُ بأن السيّد روشستر يرتعِدُ، ثم قال لي: "لا بُدَّ من أن تلكَ المرأةَ هي غرايس بول. رأيتِ ماذا فعلَت بمايسن المسكين. لقد بدَتْ أسوأَ حالاً لأنك كنتِ نصفَ نائمة. لا بُدَّ من أنكِ تتساءَلين عن سببِ احتفاظي بهذه المرأةِ في منزلي. سوف أُخبرُكِ عندما يكون قد مرّ على زواجِنا سنةٌ ويوم. أعِدُك بذلك. هل توافِقين يا جاين؟"

أومأتُ برأسي موافِقةً. فقال:

"الآن، اذهبي إلى سريرك واحلَمي بالحبِّ السعيد."

لدى دخولي إلى الكنيسةِ في اليومِ التالي، رأيتُ شخصَينِ غريبَينِ يترصّدان في باحةِ الكنيسة. ثم بدأتْ مراسِمُ الزِّفاف. وكما هي العادة، سأل القَسُّ إن كان هناك سببٌ ما يحولُ دونَ زواجِنا. وتوقّفَ، ثمّ أكملَ المراسمَ غيرَ متوقعٍ أيَّ جواب. وما لبث أن دوّى صوتُ رَجلٍ في تلكَ الكنيسةِ الصَّغيرة. "لا يمكن لهذا الزواجِ أن يتمّ. للسيدِ روشستر زوجة."



الفصل الثامن

وحيدة

لم أُصَبْ بالإغماءِ لدى سَمَاعي هذه الكلمات. فنظرتُ إلى السيد روشستر وجعلتُه ينظر إليَّ. كان وجهُه قد فقدَ كلَّ لون.

وأكمَلَ الصوتُ قائلاً: "منذُ خَمسةَ عشَرَ عاماً، تزوّجَ السيد روشستر ببرتا مايسن في جامايكا."

"هذا صحيح. لقد تزوّجتُ"، أجابَ السيد روشستر أخيراً. "لكن هذا لا يعني أن زوجتي ما زالَت على قيدِ الحياة."

فقال الرجل: "كانت على قيدِ الحياةِ منذ ثلاثة أشهُر"، وأضاف: "تقدَّمْ أيّها السيّد مايسن."

لدى سمَاعِ الاسم، ارتعَدَ السيدُ روشستر غضَباً من رأسِه حتى أخْمَصَ قدمَيه. فرفع ذراعَه وظننتُ أنه سيضربه.

"أنا شقيقُ برتا"، قال مايسن. وأضاف: "لقد رأيتُها في ثورنفيلد هول."

ارتسمَت على شفتَي السيِّد روشستر بَسمةُ اشمِئْزاز، وقال: "لن يكونَ هناك زِفافٌ اليوم. برتا مايسن هي زوجتي. ولكنّها مجنونة. إنها تنتسِبُ إلى عائلةٍ مجنونة، ولكنهم لم يُطلعوني على سرِّها. لقد حمَلوني على الزواجِ بها." ونظر إلى أرجاءِ الكنيسة، وأضاف: "الآن أدعوكُم جميعاً للصُعودِ إلى منزلي ومقابلة - زوجتي! وسوف تحكُمون على ما إذا كنتُ مُصيباً أم لا بخَرقِ عهودي الزَّوْجيّة."

غادَرنا الكنيسةَ إلى ثورنفيلد هول، وهو يمسِكُ بي بإحكامٍ إلى جانِبه. وصلنا إلى المنزلِ وصعِدنا إلى العُلّية. فرفَعَ السيد روشستر النسيجَ الجداري المُزدانَ بالرُّسومِ عنِ الحائط، وفتحَ قفلَ البابِ الموجودِ وراءَه. وفي غرفةٍ لا نافِذةَ لها كانت تجلِس غرايس بول، مُنحنيةً فوقَ النارِ تطهو.

وفي الناحيةِ البعيدةِ من الغرفة، كان هناكَ مخلوقٌ حيٌّ يركُض إلى الأمامِ وإلى الوراء. وكان من المستحيلِ تحديدُ ما إذا كان حيواناً أو كائناً بشرياً. فقد كان يركُض على يدَيه وقدمَيه مزمجراً كحيوانٍ بريّ، وله شعرٌ أسودُ يغطّي وجهَه. واستقبلَت السيد روشستر صرخةٌ ضارية، ووقف المخلوقُ على قدمَيه.

"حاذِرْ يا سيدي!"، قالتْ غرايس بول.

اقتربَ المخلوقُ منّا وتعرّفتُ إلى وجهِه. لقد أتت إلى غرفتي



ومزّقتْ خِمارَ زِفافي! ووثبَتْ على السيّد روشستر وتشبّثَت بحَلْقِه، قاضِمةً وجنتَه. أخيراً، انتزع يدَيها وضمّهما إلى بعضِهما البعض.

ثمّ التفتَ إلينا وقال: "هذه هي زوجتي". ووضَعَ إحدى يدَيه على كتفي وأضاف: "وهذه الزوجةُ التي يجدُر بي أن أُحِب. والآن، هل أنا مُخطئٌ يا سادة. عليَّ الإقفالُ على زَوجتي مجدَّداً".

نزَلتُ درجاتِ السُلّم بِبُطءٍ مع السيد مايسن ومحاميه، وهو الرجلُ الذي تكلّم في الكنيسةِ جَهْراً.

"لقد عَمِل عمّك، يا آنسة إير، لصالحِ شركةِ عائلتي في ماديرا لعدةِ سنوات"، قال لي السيد مايسن. "وكنتُ معه عندما وصلَت رسالتُكِ تخبرينه فيها عن زواجِك بروشستر".

ولدى مغادرةِ الجميع، أقفلتُ بابَ غرفتي وبكَيت. ثمّ خلعتُ ملابسَ الزِفافِ وارتديتُ ملابسي القديمة. شعرتُ مجدداً بأني فتاةٌ تشعُرُ بالوحْشَة وتفتقرُ إلى العاطفةِ. فقد حلّ صَقيعُ الشتاءِ في منتصفِ الصيف، وتلاشَتْ آمالي بحياةٍ سعيدة، وبتّ أكثر توقاً إلى الموت.

وفي وقتٍ لاحقٍ من فترةِ بعدِ الظهرِ تلك، وعندما بدأتِ الشمسُ بالمغيب، أدركتُ أن أحداً لم يَطرُقْ بابي - لا أديل، أو السيدة فيرفاكس، أو السيد روشستر. فرفعتُ مِزلاجَ البابِ وخرجت. كان السيد روشستر يجلِس خارجَ الغرفة.

"حسناً يا جاين"، قال، وأضاف: "هل ستسامحينني يوماً ما؟"

أيها القارئ! لقد سامحتُه على الفور! ولكن في قلبي فقط، لا بالكلمات.

فقلت: "أُحبكَ بالفعل أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى، ولكن يجبُ عليَّ عدم إظهارُ ذلك. فأنت رجلٌ متزوج، وهذه المرةُ الأخيرةُ التي أقول لكَ فيها هذا الكلام. يجب عليّ مغادرةُ ثورنفيلد هول. عليَّ أن أغادرَك إلى الأبدِ وأن أبدأ حياةً جديدة".

"سأكون تعيساً لدى مغادرتِك"، قال بِحُزن. "ماذا عليَّ أن أفعلَ يا جاين؟ تذكّري، أنتِ تترُكينني في عذابٍ شديد. تذكري مُعاناتي عندما ذهبتِ. كانت حياتي جَحيماً حتى الآن. ولكنني مُغرَمٌ حقاً للمرةِ الأولى".

ثُمَّ قبّل جبيني برِقّة، وعُدتُ إلى غرفتي.

"هل ستتركينني حقاً؟"، سأل.

قلت: "أجل"، وعُدْتُ إليه وقبّلتُ وجنتَه، وهمستُ: "لِيباركَكَ الله، يا سيدي!"

ومن ثَمّ تركتُه، وقلت في نفسي: "وداعاً! وداعاً إلى الأبد!"

الفصل التاسع

صوتٌ في الظلام

غـادرتُ ثـورنفيلد هـول قبلَ الفجر. ومررتُ بمحـاذاةِ الحقولِ وصفوفِ أسْيِجَة الشُجيرات باكيةً، وحِذائي مُبلَّلٌ بالنَّدى. كنتُ ضعيفةً جداً بسببِ الحزنِ لدرجةِ أنَّني توقَّفتُ لكي أستلْقي على الأرض. وعندما هَمَمْتُ بالوُقوف ثانيةً، توقفت بجانبي عرَبةٌ كبيرة. فعرضتُ على السائقِ كلَّ ما لديَّ من مالٍ وصعِدتُ إلى داخلِها.

بعدَ يومَين، أنزلَتني العربةُ عند مُفترَق طُرُقٍ يُدعى ويتكروس في شمـالِ إنكلترا. كـان الغَسَقُ قد حلّ، وكـان بـإمكـاني رؤيةُ شكلِ المستنقعاتِ من بعيد. فانطلقتُ في اتجاهِها مـارّةً بمروجٍ منخفَضة.



كانت ليلةً دافئة، وكنتُ أقطف العُلّيقِ لأتناولَه. ثمّ استلْقَيْتُ في المَرجةِ طَلَباً للنوم.

في الصَباحِ التالي، عُدتُ إلى مفترق الطُرُقِ وبدأتُ بالسَّيرِ في موازاةِ الطريقِ إلى أن سمِعتُ قرع جرسِ كنيسةٍ بعيد. وفي الساعةِ الثـانيـة، دخلتُ القريـةَ وقرعْتُ عدداً كبيراً من الأبواب، عـارضَةً استبدالَ قفّازاتي بقِطعةِ خُبز. ولكنّ الجميعَ رفضوا. فعدتُ أدراجي إلى المستنقعات.

"يجدرُ بي الموتُ هنا عِوَضاً عن الموتِ في قبرِ مُعوَز"، قلتُ في نفسي.

وبينما كنت أنظرُ من حَولي، رأيتُ ضوءاً على تلّةٍ بعيدة. وبدأ المطرُ بالانهمار، فقرّرتُ الوصولَ إليه. وعندما وصلتُ أيها القارىء إلى مور هـاوس استقبلوني وآووني! كان لا بدَّ لي من الموتِ في المستنقع لو لم يفعلوا ذلك. وكلّما زادت معرفتي بالقَسِّ المقيمِ هناك - السيد ريفر - وشقيقتيهِ ديانا وماري، ازدادَتْ مَحبّتي لهم. دَعيتُ نفسي جاين إليوت. وكان السيّد ريفرز قد أنشأ مدْرَسةً صغيرةً للفتيات في القرية، وهناك وَجدتُ مأوى جديداً لي.

"هل قمتُ بالعملِ الصحيح؟"، سألتُ نفسي. أيُّهما أفضل؟ حبُّ السيد روشستر والعيشُ في رَفاهيّة، والخجلُ ممّا قُمتُ به؟ أو أكونُ معلّمةً في القرية - صادقةً وحُرّة؟"

كنت أعلمُ أنني اخترتُ الطريقَ الصحيح.

وفي مساءِ أحدِ أيامِ تشرينَ الثاني/ نوفمبر، جاء السيد ريفرز لرُؤيتي وقال لي: "تعالَي واجلسي بجانبِ النار، "واستَمعي إلى

قِصَّتي. فقد سمعتُها بدوري من محاميَّ. وهي تتناول قسًّا مِسكيناً وقَعَ في غرام فتاةٍ ثريّة. فتزوّجا وأنجبا طفلة. ثَمّ ماتا بعد ذلك. قام خالُ الطفلةِ بإيوائِها، وهو رجلٌ يُدْعَى السيد ريد. وعاشَتْ عشرَ سنواتٍ كئيبةً هناك. وأصبحَت مدرِّسةً مثلك. ثُمّ أصبحَت مربّيةَ أطفالٍ لدى السيد روشستر. فوعَدَ بالزواجِ بها، ولكن كانت لدَيهِ زوجةٌ مجنونةٌ مَحْجوزةٌ في أعلى المنزل." ونظر إليّ وقال: "إنّها قِصَّةٌ غريبة، أليس كذلك؟"

فقلت له: "بما أنكَ اكتشفتَ كلَّ هذه الأمور، أخبِرني!" كيف حالُ السيّد ريد؟"

أجاب: "لا أعلم. لم تذكُره رسالةُ صديقي. ولكن يُفترَضُ بكِ أن تسألي عن اسمِ مربِّيةِ الأطفال. وبما أنكِ لا تقومينَ بذلك، فسوف أخْبِرك. إنّها جاين إير. هل أنا مُحِقّ؟"

"أجل، أجل".

فَسَألني: "ألا تتساءَلينَ عن سببِ قِيامِ محاميه بالبحثِ عنك؟ لقد تُوُفِّيَ عمُّك جون إير في ماديرا، وأورثَكِ كلَّ مالِه. أنتِ ثريّة."

"ولكن لمَ كتبَ إليكَ وليس إليّ؟".

قال: "لقد اكتشَفَ أيضاً أنني ابنُ عمّتِك. كانت والدتي شقيقةَ والدِك."

"آه، كم أنا سعيدة!"، قلتُ. "لم يكنْ لي أحدٌ والآن باتَ لديَّ ثلاثةُ أنسباء!"

مررتُ بأسعدَ عيدِ ميلادٍ في حياتي في مور هاوس مَع عائِلتي الجديدة. ولكنني لم أنسَ السيد روشستر ولو لِلحظةٍ واحدة. أردتُ أن

أعرِفَ ماذا حلَّ به. فكتبتُ إلى السيدة فيرفاكس، ولكنني لم أتلقَّ أيَّ جواب.

وبعد أن حلّ فصلُ الربيعِ وحلّ بعده فصلُ الصيف، شعرتُ بالحُزن. وكان السيد ريفرز قد قرّر الذهابَ إلى الهِندِ كمُبشِّر، وتوسّلَ إليَّ لكي أذهبَ معه كزوجةٍ له. فرفضتُ. وتوسّل إليَّ ثانيةً.

"يمكِنُني الزواجَ بكَ فقط إذا كانت هذه مشيئةُ الله"، قلت له. "سوف أُصلّي الآن."

عندما ركَعْتُ لأصلّي، كانتِ الشمعةُ في الغرفةِ تَذْوي شيئاً فشيئاً ويغمُر الغرفةَ ضوءُ القمرِ. كان قلْبي يخفِقُ بسرعَة. ولدى انتهائي من الصَّلاة، سمِعت صوتاً ضعيفاً يصرُخ ألَماً.

"لقد سمِعتُ صَوْتاً، يا جاين!"، قال السيد ريفرز. "ماذا قال؟"

كنتُ قد سمِعتُ الصَّوْتَ أيضاً. لم يكنْ صوتُ الله بل كائنٍ بَشري. كان صوتاً معروفاً ومَحْبوباً. كان صوتُ إدوارد روشستر.

"انتظِرني! سآتي إليك!"، أجبتُ صارِخةً.

الفصل العاشر

"أيها القارئ، لقد تزوّجته!"

نهضتُ من فراشي حالما بزغَ الفجر. كان اليومَ الأولَ من حُزيران/ يونيو، ولكنّ الطقسَ كان بارداً، والجوُّ ماطِراً. وبينما كنت أنتظرُ العربةَ على مفترق الطرُق، سمعتُ عجلاتِها تُقعقِعُ من بعيد. فهَمَسْتُ قائلِة:

"لقد مرّت سنةٌ على نزولي في العربةِ نفسِها هنا منذ عام! يا لِلمخلوقِ المسكينِ والتعيسِ الذي كنتُ عليه آنذاك."

استغرقَتِ الرحلةُ إلى ثورنفيلد هول يوماً ونِصفَ اليوم. وركضتُ من المَجازِ الضيّقِ مُتلهّفةً لأولِ نظرةٍ خاطفةٍ للمنزل. قدِمتُ إلى بستانِ الفاكهةِ حيث طلبَ منّي السيد روشستر الزواجَ بي. ونظرتُ إلى المنزلِ عَبرَه.

لكنّ المنزلَ لم يَكنْ هناك. ولم يكن بإمكاني سوى رؤيةِ خَرابٍ فقط، كما رأيتُه في حُلمي قبل يومِ زِفافي. وكان صوتُ الموتِ يحيط به. فركضتُ طوالَ الطريقِ المؤدّي إلى نُزُلِ القرية.

"هل يُقيم السيد روشستر في ثورنفيلد هول؟"، سألتُ بالرغمِ من معرفتي الجواب.

أجاب القيّمُ على النُّزُل: "لا يا سيّدتي. أعتقدُ أنكِ غريبةٌ أم أنه لا بدَّ من أن تكوني قد سمعتِ بما حدث. في فصلِ الخريفِ الماضي، شَبَّ حريقٌ في منتصفِ الليل. كانت ليلةً رهيبة. شاهدتُه بأُمِّ عينَيّ."

"من أشعَل النار؟"، سألت.

أجابَ الرجل: "يعتقدون أنها المرأةُ المجنونةُ التي كان يحتجِزُها هناك. كان على غرايس بول تناولُ الكثيرِ من الشرابِ المُسكِرِ ذاتَ ليلة. فأخذتِ المرأةُ المجنونةُ مفاتيحَها وخرجَت. يقولون إنها كادت تحرُق زوجَها في سريرِه ذاتَ مرة، ولكنّ مربّيَةَ الأطفالِ أنقذَته."

"والسيد روشستر؟، هل كان هناك؟"

قال الرجل: "نعم! لم يغادرِ المنزلَ أبداً إلا أثناءَ الليل. ثمّ هام في بستانِ الفاكهةِ كشبح. لقد صعِد إلى الطابقِ العُلويِّ عندما اندلعتِ النيرانُ وأخرج كلَّ الخدّام. ثمَّ ذهب لإنقاذِ زوجتِه المجنونةِ أيضاً. ولكنها كانَت على السطح. لقد رأيتُها تصرُخُ وتلوِّحُ بيدَيها. دعاها السيد روشستر باسمِها. سمعَته وقفزَت، وتمزّقَت إرَباً في الأسفل."

إلهي إلهي!"، صرخت. "هل... مات أيُّ شخصٍ آخر؟"

قال: "لا، ولكن كان من الأفضلِ لو ماتوا."

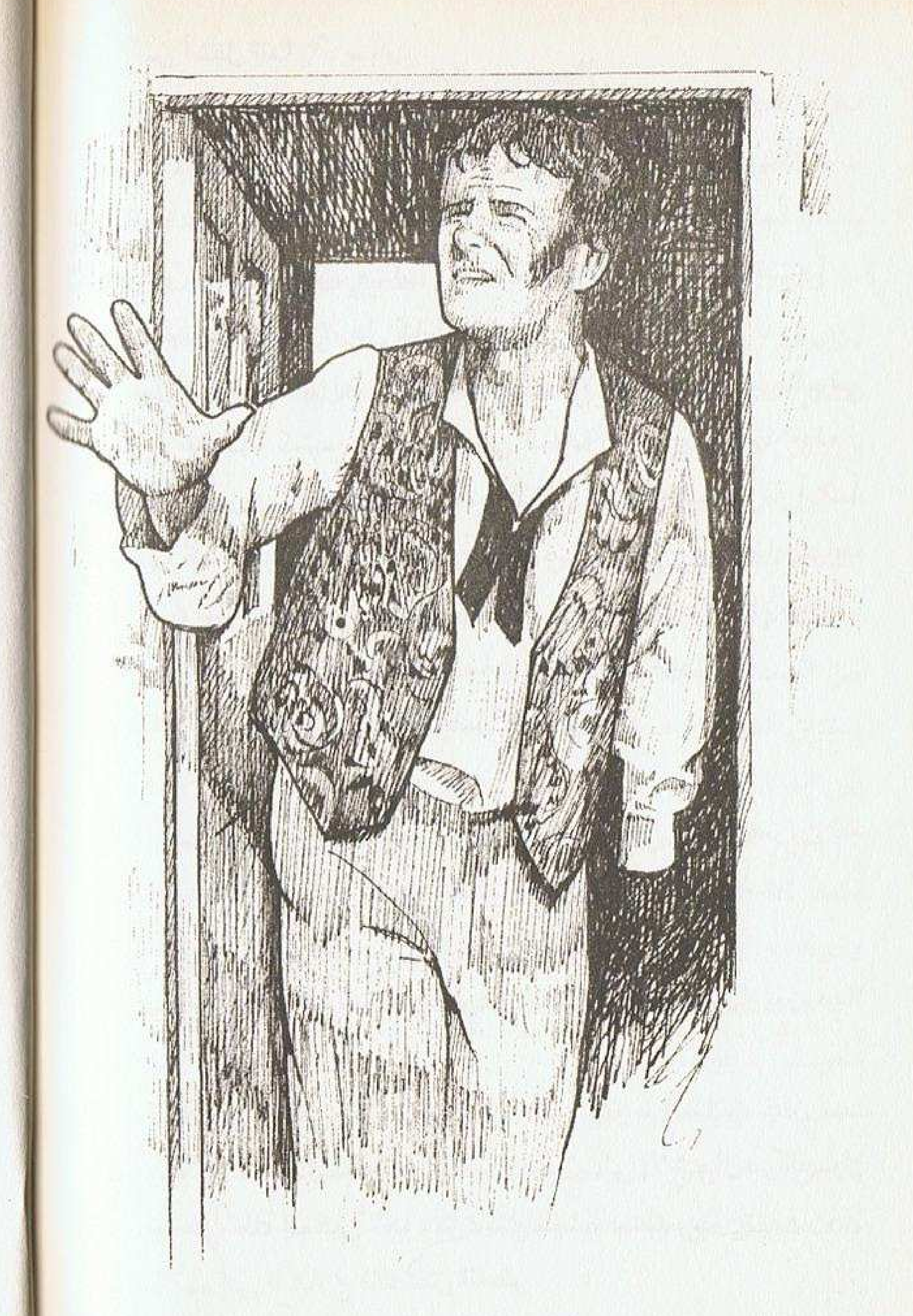
"ماذا تعني؟".

أجاب: "إنه ضرير. السيد إدوارد روشستر حيٌّ ولكن ضرير. لقد انهار السقفُ عليهِ لدى نزولِه السُّلَّم. وفقدَ إحدى يدَيه أيضاً."

فصرخت: "أين هو؟".

فشرحَ قائلاً: "في إحدى مزارِعه ـ على بُعدِ حوالي ثلاثين مِيلاً من هنا."

طلبتُ عرَبةً على الفورِ، ووصلتُ عند هبوط الظلام. كان بيتُ المزرعةِ مُظلماً وكئيباً، وكان صوتُ المطرِ على الأشجارِ هو الصوتُ الوحيدُ في ذلكَ المكانِ الموحِش. فُتحَ البابُ ببطءٍ وخرج منه رجلٌ، ثم مدّ يدَه إلى الخارجِ لتحسُّسِ المطر.



كان سيّدي، إدوارد روشستر.

وقفتُ بِلا حِراك، حابِسةً أنفاسي ومراقبةً إيّاه. كانت ترتسِمُ على وجهِه نظرةُ يأسٍ واكتئابٍ ذكّرتني بعصفورٍ محبوسٍ في قَفَص. ففتح عينَيهِ وحدّق بالسماءِ على نحوٍ خالٍ من التعبير، ثمّ عاد إلى داخلِ المنزل.

اقتادتني خادمتُه إلى غرفةِ الجلوس. كان المكانُ مُظلِماً على الرغمِ من النار. وعندما دخلتُ، انتصبَت أُذُنا كلبِه العجوز، بايلوت، ونبحَ.

"اجلِسْ، يا، بايلوت"، قلتُ بسرعة.

فسأل السيد روشستر: "من هناك؟" مادّاً يدَيه في محاولةٍ للعثورِ عليّ، وأضاف: "تكلّم!"

"بايلوت يعرِفُني"، أجبت.

فمدّ يدَه ثانيةً وأمسكتُ بها. فأمسكَ ذراعي بإحكام، وتلمّس عنُقي وخَصري، وسأل: "هل هذه جاين؟"

"أجل يا سيدي العزيز"، أجَبتُ. "أنا جاين إير. لقد عَثرتُ عليكَ وعُدتُ لأجلِك. أنا امرأةٌ ثريّةٌ الآن. سوف أهتمّ بك."

قال السيد روشستر متحسّراً: "لا، جاين."

تحدّثنا لعدةِ أيام، وأخبرتُه عن حياتي في مور هاوس، ومدرستي - والسيد ريفرز. ثم قال لي:

"أريدُكِ أن تختاري، يا جاين، وسأقبَل قرارَك. هل تتزوّجين بي، أنا الرجلُ المسكين والضرير والعاجز، أفوقك عُمراً بعشرين سنة؟"

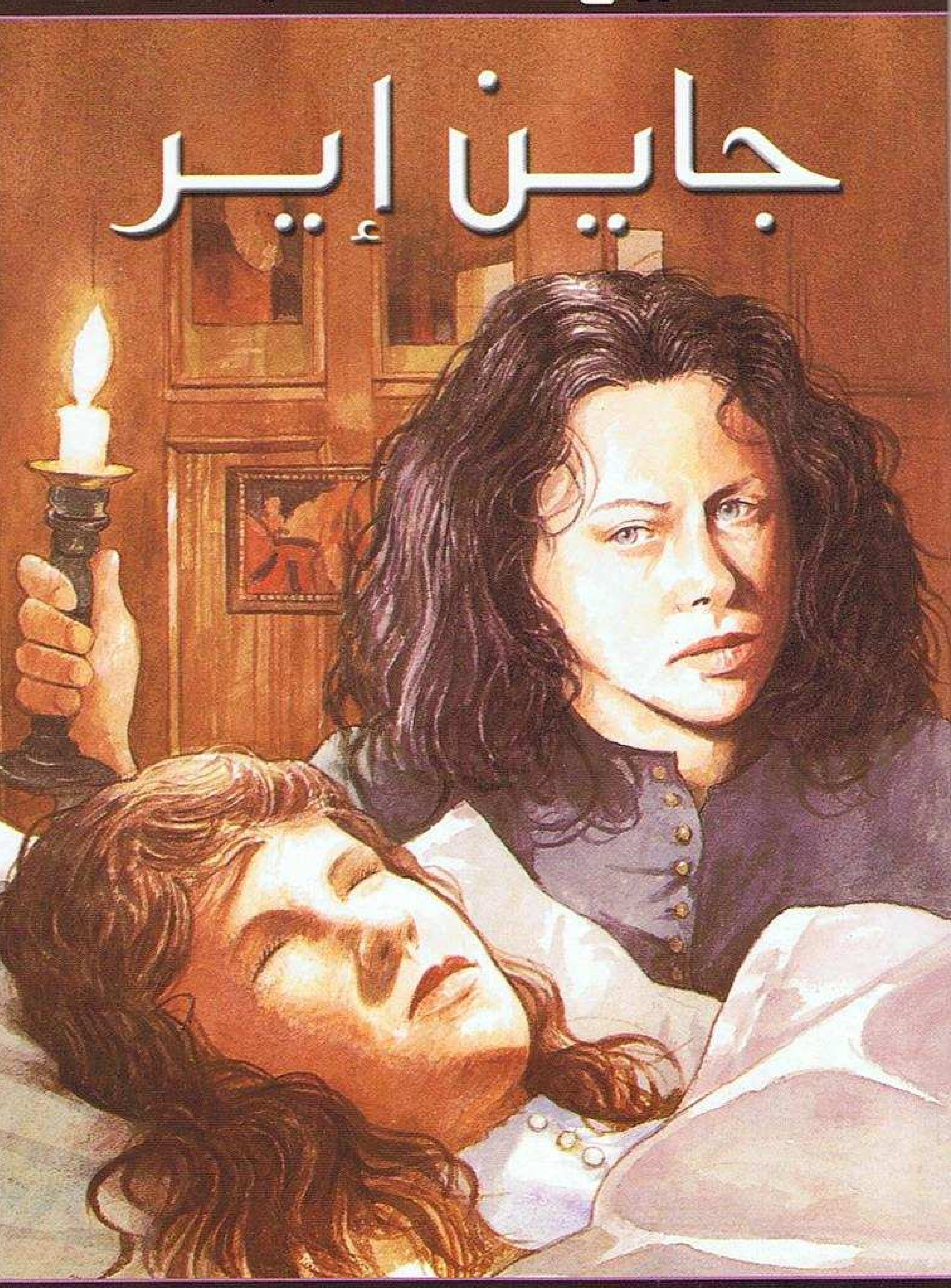
فأجبْتُ على الفور: "أجل يا سيدي."

فقال هامساً: "ليباركِ الله!، كنتُ قد بدأتُ بالصلاة، يا جاين. بإيجار، ليلةَ الإثنين الماضي، توسّلتُ إلى اللهِ طالِباً الموت. ظننتكِ مَيتةً وأردت أن أكونَ معكِ مُجدَّداً. فناديتُك باسمِك."

"أعلم، لقد سمعتُكَ."

أيها القارئ، لقد تزوّجتُ به! وقد مَضى على زواجي به عَشْرُ سنواتٍ ولم أكنْ أسعدَ حالاً مما أنا عليهِ الآن. بعدَ عامَينِ من زواجِنا، استعاد السيّد روشستر البصرَ في عينٍ واحدة. ثم تزوّجَت عزيزتايَ ديانا وماري، ونحن نقابلهما كلَّ عام. ذهب السيد ريفرز إلى الهندِ حيث ما زال يُقيم، ولكنه لم يتزوجْ أبداً. وأديل؟ لقد غادرتِ المدرسةَ الآن وهي رفيقتُنا العزيزةُ على قلوبنا.

أروع القصص العالمية



أكاديميا